

الأمازيغية والعربية: هويتا المغرب الكبير

عبد الجليل التميمي *

إذا كان ملف الهوية العربية بالفضاء المغاربي قد تمت معالجته خلال النصف الثاني من القرن العشرين وحتى اليوم، ونشرت مئات الدراسات حوله، كما ونوقشت عشرات الرسائل الجامعية بالجامعات المغاربية والأوروبية والأمريكية، وتم موقعة هاته الجدلية البحثية الهامة بتناول ماهيتها ومدى تدخلها وتوافقها أو تقاطعها مع بقية الهويات الأخرى في فضاءنا، أذهب إلى الاعتقاد أن الملف الأمازيغي يتطلب منا أن نوليه كبير عنايتنا واهتمامنا البحثي، بعيدا عن المواقف المشطة لهذا الطرف أو ذاك، خصوصا تلك التصريحات ذات الطابع الهجومي على سلبية مواقف القادة السياسيين والنخب الجامعية المغاربية تجاه الملف الأمازيغي والتي تأرجحت صعودا وهبوطا، خصوصا بعد ثورتي تونس وليبيا، وكان وراء حراك أمازيغي ذي إيديولوجية هجومية من عديد الفاعلين الليبيين والتونسيين خلال السنتين الماضيتين. وقد ذهب بعض الباحثين إلى القول إنه استوجب عدم تنسيب ربيع الثورة إلى العرب فقط بل أيضا إلى الأمازيغيين، داعيا أيضا إلى إطلاق الربيع الأمازيغي، وفي هذا الاتجاه تنزل تصريحات السيد فتحي بن خليفة من ليبيا الذي نادى بالقطع مع العروبة أصلا. ثم الأستاذ سليمان أقجم من كلية الاقتصاد بجامعة طرابلس اليوم، وهو من الغلاة ويعد منظر انفصال البربر عن العرب في ليبيا^(١)!

سيتركز بحثنا حول خصوصيات الهوية الأمازيغية والمسارات الدقيقة والصعبة التي عاشتها وواجهتها مع الأنظمة السياسية القائمة منذ الاستقلال السياسي لفضائنا والتي سعت إلى محاربتها وإجهاض مسيرتها لعدة عوامل. كما سنتوقف حول مدى تواصل هاته الهوية أو تقاطعها مع الهوية العربية، والأبعاد الثقافية التي تحرك كلا من الهويتين. ومن هذا المنطق نقر بأن الملف الأمازيغي قد حظي باهتمام بالغ من قبل النخبة الأمازيغية المحلية بالمغرب والجزائر وأوروبا وحديثا بليبيا وتونس، حيث حظي انطلاقا من منتصف القرن التاسع عشر باهتمام نوعي من قبل السلطات العسكرية الفرنسية بالجزائر والتي عدته أحد الأولويات الثقافية في أجندة السياسة الاحتوائية للشعبين الجزائري والمغربي.

(* مدير مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات - تونس.

وقد تقاطعت التحاليل والمواقف المحلية والفرنسية تجاه هذا الملف الذي يصفه البعض بأنه قنبلة موقوتة وقابلة للانفجار في أي وقت وحين^(٢). والواقع يفرض على جميع الباحثين المستقلين فكيرا العمل على استجلاء الخلفيات التي انبنت عليها مواقف كل طرف، واقتراح خطة طريق استشرافية لهذا الملف الذي يحتل مكانة جديدة في حياتنا السياسية والأدبية والثقافية في هاته الفترة الزمنية الحرجة. وسوف نتقدم في آخر هذا البحث باقتراح عملي لتجنب التجاذبات المتقاطعة حول الواقع الأمازيغي في فضاءنا المغاربي.

وبادئ الأمر، وجب التأكيد أن عديد المظالم الاجتماعية والفكرية قد حلت بفضائنا الجيو-سياسي، وكان ذلك وراء السياسة الاستعمارية بكل مدوناتها القانونية - العسكرية ولكن بصفة أخص تمت مثل هذه المظالم أثناء عهد الاستقلال، حيث قام رجال دول الاستقلال بتجاهل الملف "الأمازيغي - البربري" جملة وتفصيلاً^(٣). وتم ذلك نتيجة عدم إدراكهم ووعيهم بأبعاده الحقيقية في صيرورة المناخ الوفاقي والإقرار بتنوع وثرء المرجعيات الاتنية للسكان عبر مئات السنين، وأنه إذا أردنا فهم التركيبة الاتنية والاجتماعية للشعب المغاربي عموماً، فعلياً أن نفهم خصوصيات الملف الأمازيغي.

ودون أن نذهب بعيداً حول مضامين التعريفات المستعملة من قبل الفرنسيين والأمازيغيين على حد سواء، ندرك أن هناك إرثاً سلبياً مشتركاً بين الأطراف جميعها كان قد حدد مواقفها طيلة المد الاستعماري في الفضاء المغاربي وحتى عهد الاستقلال. وللتذكير فقط، اتبعت فرنسا سياسة الاحتواء وتقسيم المواطنين على أساس عرقي، منتهجة فرضية التمييز الفيزيولوجي بين العرب والبربر خلال القرن ١٩، موظفة في ذلك المناهج التربوية والبحوث الأكاديمية في التاريخ والاثنوبولوجيا والآداب^(٤). وتم التركيز حول تعليم الأهالي كل شيء ما عدا الإسلام^(٥)، كما اتبعت فرنسا سياسة بربرية رهيبة لا لبس فيها تقوم على الاستغلال المنظم للأحقاد بين العرب والبربر لتؤدي في النهاية، على ضوء خطتها، إلى دمج القبائل فيما بينها بهدف تحجيم الجنس العربي، مؤكدة على استراتيجية سياستها البربرية من أن "القبائليين أفضل من العرب ولهم قابلية الاندماج في بوتقة التقدم لحضارتنا"^(٦)، وهي السياسة التي تبناها العسكريون والمبشرون خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر أمثال الجنرال هانوتو (*Hannoteau*) الذي ألف كتابين مرجعيين عن القبائل والطوارق، كانا قد أثرا وبعمق على توجه وإنتاج الباحثين الفرنسيين والباحثين الأمازيغيين أنفسهم، بإثارته العديد من الجدليات البحثية والتي تؤكد على أن الجزائريين هم بربر ولا يمتون بصلة إلى الجنس العربي وأن العرب هم غزاة اغتصبوا الأرض الجزائرية واحتلوها، والأشنع من ذلك هو هذا الادعاء الذي أثير بأن البربر هم من أصل أوربي لاتيني^(٧)! وكان الاتجاه العام هو العمل على فصل العربي عن الأمازيغي. ثم ألم تخطط السلط الفرنسية أسلمة الأوراس، بإصدار قانون ١٨٦٦، والذي يلغي فيه العرف

المحلي البربري تماما^(٨)! وقد تبلورت هذه النظرية منذ سنة ١٩١٥ بالجزائر عندما وجه اللغوي الفرنسي *Edmond Destaing* إلى ليوتي الحاكم الفرنسي العام بالمغرب رسالة دعاه فيها إلى إنشاء مركز الدراسات البربرية في المغرب الأقصى^(٩). وقد تبلورت الرؤى بتعزيز هذه الجدلية خلال الخمسة عشر سنة بعد ذلك من المجهودات الفرنسية لتعميق النزعة البربرية، وقد توج ذلك بإعلان الظهير الاستعماري البربري بالمغرب سنة ١٩٣٠ من طرف المرشال ليوتي^(١٠).

لقد نادى هذا الظهير بالتخلي عن قوانين الشريعة الإسلامية لا بصفتها الدينية بل بصفتها قوانين عربية وبالتالي، كان الهدف منها القضاء عليها أو بالأحرى وجب القول التقليل من تأثيرات التشريعات القرآنية على المواطنين. كما منح هذا الظهير صلاحيات عدلية عبر توظيف التقاليد والعرف البربري المعمول به يومئذ، وإنشاء محاكم عرفية متركبة من الأعيان ومكلفة بالحكم في جميع القضايا المدنية والتجارية والمنقولات والقضايا العقارية. وقد شكل هذا الظهير منعطفا خطيرا في التاريخ المحلي، مساهما بذلك في خلخلة الروابط التي تسود المجتمع الأمازيغي والعربي^(١١) بل وزرع شتى الفوارق بين عناصره المتنوعة. وقد اهتم العديد من الدارسين الفرنسيين والأمازيغيين بعلاقة البربر بالدين الإسلامي، مؤكداً أن تلك العلاقة ضعيفة جدا وأنهم أقل تمسكا بالإسلام أو أنهم غير متعصبين على عكس العرب الغارقين في اعتدادهم بالعروبة والإسلام "وأن الدين الإسلامي تشوبه مفاهيم ومعتقدات غير إسلامية". وهذا ما استخلصه المرشال ليوتي، المقيم العام الفرنسي من أن أثر الإسلام لدى البربر سطحي جدا، مستندا في تحاليله على منظومة الأكاديميين والعسكريين الفرنسيين طوال أنشطتهم العلمية والعسكرية، وهم الذين أكدوا على رفض الأهالي للقوانين الشرعية التي ينص عليها القرآن، وأن العرف هو قانونهم الوحيد ولا يقبلون بالشرع مهما كان الثمن لذلك. وقد أعطى هذا الظهير، كما يؤكد الباحث سالم الأبيض، الصبغة القانونية للأسطورة البربرية مخرجين بذلك المجموعات البربرية من دائرة القضاء الشرعي الراجع إلى المخزن وملحقين إياها بالإقامة العامة الفرنسية^(١٢) كما يدعيه أقطاب السياسة الاحتوائية الفرنسية بالمغرب الأقصى. وقد قام روبرت منتاني (*Robert Montagne*)، الذي نشر كتابا سنة ١٩٣٠ حول التحولات السياسية للبربر وهم المعروفون بمجموعة الشلوح، بإضفاء الصبغة العلمية على هذا الظهير الاستعماري^(١٣).

وقد أكدت الدراسات الأمازيغية اليوم أن هذا الظهير كان وبالا على الكل إسلاميا وأمازيغيا وعروبيا^(١٤).

إن المتتبع لمدونة الدراسات الفرنسية حول هاته المسألة سيكشف أن مئات الكتب والدراسات قد عالجت هذا الملف الدقيق منذ منتصف القرن التاسع عشر ونشرت من طرف عسكريين ومسؤولين سياسيين ومؤرخين وكتاب. وكان طابع هذا التراث البحثي

المؤدج أنه كان حاملا لواء الدفاع عن البربرية، والتي توسعت قنواتها وسبلها عبر مختلف الكتابات الفرنسية التاريخية والأدبية والانثروبولوجية، ليتوج بإنشاء معهد الدراسات الأمازيغية في صلب جامعة الجزائر في أوائل القرن العشرين، قبل أن تنشأ مثل هذه الكراسي بكل من باريس والرباط أو أي فضاء جامعي دولي آخر^(١٥). وقد أصبح قطبا متحركا وفاعلا في تفعيل مطالب الأمازيغيين الأساسية كالاعتراف بهم كجزء من المجتمع الجزائري أو المغربي وأن لهم حقوقا تاريخية وجب على الجميع الاعتراف بها دستوريا. وفي هذا السياق برز باحثون أكاديميون أشرفوا على هذا الكرسي البربري بالجامعة الجزائرية، ولعل آخرهم، أثناء العهد الاستعماري المتأخر، جزائري من أصل أمازيغي هو سعيد بوليفة الذي قام بنشر مجموعات من النصوص الأدبية البربرية، وتم إلحاقه بكلية الآداب بجامعة الجزائر. وقد تعددت المنشورات من كتب وبحوث ورسائل جامعية، وكان آخرها أول رسالة دكتورا دولة نوقشت قبل سنة واحدة من الاحتفال بمئوية احتلال الجزائر وقام بها أندي باسي^(١٦). وفي هذا السياق، جاءت مبادرة المملكة المغربية متأخرة جدا، إذ بعد مخاض عسير وشاق ومؤلم، تم تأسيس المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية في تموز/يوليو ٢٠٠١^(١٧) وجاء خطاب أجدير في ١٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١، وقبل ذلك قامت الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي منذ تأسيسها في ١٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٧ على تبني أنشطة عديدة وأساسية للحركة الثقافية الأمازيغية منذ سنة ١٩٩١ وأدت هذه المساهمات بعد ذلك إلى الاعتراف بشرعية هذه الحركة الأمازيغية^(١٨).

إلا أن سلوكيات ومواقف جميع المسؤولين المغاربة بعد الاستقلال لم تحترم الثوابت والقناعات والخصوصيات الأمازيغية. وتم تبني سياسة غير ذكية أصلا، عندما قامت السلطات السياسية الجزائرية بعد الاستقلال مباشرة بإلغاء كرسي الدراسات البربرية من جامعة الجزائر سنة ١٩٦٢، وهو ما كان وراء بروز تجمعات فكرية وثقافية ومهنية عديدة خارج وداخل الجزائر كرد فعل، والتي رفضت طمس هويتها ومميزاتها اللغوية والحضارية أو التقليل منها. وعليه قام الأمازيغيون بانتهاج سياسة قضت بإبراز هويتهم القومية وخصوصياتهم الأدبية واللغوية عبر تنظيم عدد من التظاهرات والأنشطة المختلفة وكان الهدف منها خلق وعي حقيقي بأزمة الهوية البربرية. واتسمت تلك الأنشطة بمعاداتها للسلطة المحلية المركزية^(١٩). وعليه فإن مجابهة السلط الرسمية لهذا التيار البربري المتحرك والمتفاعل، كانت له تداعيات دقيقة جدا، إذ تبنت دولة الاستقلال مبدأ عدم تشجيع الباحثين وخصوصا منهم الأجانب على الاهتمام مباشرة بهذه الجدلية البحثية منذ استقلال الجزائر^(٢٠).

إن هذا الموقف السلبي من سلطات الاستقلال بالفضاء المغربي، كان وراء أدق وأخطر

المواقف المتشنجة لبعض القوى الأمازيغية في الداخل والخارج. ولعل أبرز تلك المواقف بعد استقلال الجزائر مباشرة سنة ١٩٦٢، هو قيام الصحافة البربرية الإعلان في باريس عن استقلال ذاتي لمنطقة القبائل. كما نادت بتشكيل حكومة مؤقتة يومئذ حتى لا يتعرض البربر مستقبلا إلى أي ظلم واحتقار وهيمنة من الحكومات الوطنية. كما ناشد أعضاء هذه الحكومة "الافتراضية" المؤقتة من باريس، إنشاء حكم برلماني وطالب الأمم المتحدة بتنظيم استفتاء بشأن تقرير المصير! وهو موقف مدان.

عد ذلك من الأخطاء الفادحة في جدلية البناء الوطني المغاربي، الذي يجب أن يحتضن كل شرائحه الاثنية. ونادت جمعيات بربرية بفرنسا وأمريكا وبريطانيا تأكيد إنشاء الدولة البربرية الواحدة وإنشاء كونغرس بربري أيضا.

إن مثل هذه الأنشطة الأدبية كان الواجب تكثيفها داخل حدود الوطن وليس خارجه. وهذا ما جعل النخب غير الأمازيغية تنظر لهذه الدعوات ومختلف هذه الأنشطة، والتي كان ظاهرها نشاطا أدبيا ولكنها اكتست طابعا سياسيا بامتياز، نظرة الريبة والشك في وطنية المنادين بها ونادت بأخذ موقف محترز منها على اعتبار توجيهها غير الوطني.

والتساؤل الحتمي الذي يفرض نفسه هو: ما هي خلفيات هذا التوجه الاستقلالي للبربر؟ وهو ما يجرننا إلى فتح ملف تعامل السلطات المغاربية جميعها بعد الاستقلال السياسي سواء أكان ذلك بالمغرب أو الجزائر ومؤخرا بليبيا وتونس مع هذه المسألة.

لنؤكد بادئ الأمر أن البربر يمثلون قسما مهما من شرائح الشعب لهذا الفضاء المغاربي، وقد بلغ عددهم حوالي ١٥ في المئة من مجموع السكان اليوم. ولا نثير هنا مصداقية إحصائيات عدد سكان الأمازيغيين، فقد تقاطعت الإحصائيات من بلد لآخر، ولكن المهم أن عددهم بحدود العشرين مليون نسمة، وسوف يتجاوز الثلاثين مليون في أواخر العقد الحالي. وهو رقم مهم جدا في عملية التعاطي الذكي مع هذا العدد المرتفع من مواطنينا^(٢١). وهنا أود أن أثير قضية دقيقة، كان قد طالب بها الأمازيغيون وتقضي بالاعتراف بهم ككينونة اثنية غير عربية. وعلى ضوء ذلك، كان الأصوب تجنب استعمال مصطلح "المغرب العربي" وتعويضها "بالمغرب الكبير". وشخصيا، كنت من أشد المنادين باستعمال تسمية "المغرب العربي" في كتاباتي منذ نصف قرن. ولكن اليوم، تغيرت لدى المعادلة تماما. ويستحسن درئا لكل الانزلاقات والمواقف غير المعتدلة، أن نكسب هذا الجزء الهام من الشعب ونعمق لديه الارتباط العضوي بالمواطنين غير الأمازيغيين وهذا ما يضمن لنا التحاما ووفاقا أصبح منشودا من طرف عقلاء الجانبين. وعكس ذلك سوف تتمادى هذه الجفوة والرفض والذي يمكن أن توظفه عديد الدوائر الغربية والأمريكية لغير صالح شعبنا ويكون وراء تعميق الشرخ بين الهوتين المغاربية والأمازيغية. ذلك أنه لا يحق لأي طرف كان أن يغيب أو يهشم أبناءه بالطريقة البائسة التي عاشها الأمازيغيون في

الاستقلال السياسي^(٢٢). ولا بد أن ننوه بعدد الشخصيات الأمازيغية التي تمكنت من إثراء المكتبة الوطنية بالجزائر والمغرب بإنتاج فكري متميز. كما أذكر هنا بأحد أعلام الأمازيغيين الجزائريين هو المرحوم محمد أوديرايت عمران، وتعيينه رئيسا للمجلس الأعلى للأمازيغية وترأسها خلال ١٩٩٤ إلى زمن وفاته وحقق نشاطا أدبيا فاعلا في الإفاقة الوطنية عبر أشعاره التي كان ينشدها المناضلون أثناء حرب التحرير للدفاع عن الهوية الوطنية^(٢٣). ثم الأستاذ محمد بودهان ومولود معمري وغيرهم. وتؤكد الدراسات العلمية غير الانفعالية أن البربر ساهموا مباشرة في نحت منظومة فاعلة في التفاعل الحضاري عبر العصور، ببروز أعلام ومفكرين وقيادات عسكريين وأدباء وشعراء وكانوا بالفعل شركاء في بناء الحضارة وتفاعلوا معها وأعطوا للمسيحية آباء مؤسسين وقديسين ومفكرين وكتابا من ألمع ما شهدته المسيحية في تاريخها الطويل^(٢٤).

لا سبيل إلى ذكر أسماء الأعلام البربريين المشهورين فالقائمة طويلة وطويلة جدا وأحب أن أتوقف على ثلاث أسماء فقط، بادئا بهذا البطل التاريخي البربري طارق بن زياد والذي قاد الجيوش المغاربية الإسلامية لفتح الأندلس، ملقبا عليهم تلك الخطبة الرائعة والتي لن ينساها التاريخ.

أما الشخصية الثانية فهو أبو عبد الله بن اجروم الصنهاجي، أحد المتخصصين في نحو اللغة العربية، وكان بربريا وعد مهندس هذا الاختصاص وواضعه وقد أطلق على كتابه الأجرومية وما زال حتى اليوم المرجع النحوي الأمثل في ذلك. وقد رددت أروقة جامعة الزيتونة والعلماء الزيتونيون طوال عدة قرون هذا الكتاب المفتاح للدفاع عن سلامة اللغة العربية والحفاظ عليها عبر تسهيل وتقريب نحوها للجميع، ويأتي هذا الإنجاز من أحد البربريين المدافعين عن سلامة الحفاظ على اللغة العربية.

أما الشخصية الثالثة، فهو البطل الريفي عبد الكريم الخطابي الذي قاد أشرف معركة تحريرية للمغرب وعهدت إليه بعد ذلك رئاسة مكتب تحرير المغرب العربي بالقاهرة، وهو الأمازيغي القح ولا نعثر في خطاباته على أية إشارة لذلك، وتلك هي دلالة عميقة جدا لهذا الوفاق المبدئي التاريخي الأمازيغي-المغاربي في ذلك الظرف التاريخي الدقيق. إن هذا التراث الأمازيغي المتنوع هو صفحة بيضاء ومشرفة للنضال السياسي والفكري والعسكري واستوجب علينا جميعا عدم إهماله من أجل بناء فكري وتنموي وحضاري لفضائنا على أسس جديدة وديمقراطية وأخذ ذلك بالاعتبار^(٢٥).

وهناك العشرات بل المئات من الأعلام الأمازيغيين عبر التاريخ الوسيط والحديث والمعاصر، من بناء الحضارة العربية-الإسلامية بربوعنا. وهم محل افتخارنا واعتزازنا ولم ننظر إليهم إطلاقا هل هم أمازيغيون أم عرب، فالهوية اللاتنية يجب أن تنمحي أمام أهمية التراث الفكري والنضال الوطني الذي أدوه يومئذ. ولا أدل على ذلك من ذكر أعلام

الثورة الجزائرية ببلاد القبائل أمثال عمار أوزيغان وكريم بلقاسم ومحمد بن السعيد وأحمد بن بلة وحسين أت احمد وهواري بومدين وعميروش وأت حمودة وعبد الرحمن ميرة ويوسف اليعلاوي ورجل الفكر المؤمن حقا بالتواصل الأمازيغي المغربي في شخصية الوزير السابق مولود قاسم، حيث عشت شخصا معظم مؤتمراته حول الفكر الإسلامي، وكنت مندهشا جدا لقناعاته حول هذا الملف بالعمل على تركيز ثوابت الهوية الوطنية الجزائرية. هذا فضلا عن عديد علماء الإصلاح الذين عملوا على توحيد الشعب ودافعوا عن هويته وثقافته العربية-الأمازيغية الإسلامية. أما الإيديولوجية القذافية خلال طول حكمه، فقد تم خلالها إصدار قانون عن مؤتمر الشعب، نادى صراحة بمنع استعمال غير العربية في جميع المعاملات بل وحجب الأسماء البربرية وعدم استعمالها أصلا وتضييق مجالات الفنون والآداب والموسيقى البربرية بل وتتبع الناشطين البربر منهم والذين وظفوا البوابة الثقافية لاختراق هذه المنوعات ؛ بل وذهبت السلطات حتى إلى الطعن في وطنية ما يطلق عنهم بليبيا الجبالية أي الأمازيغية ونكران مساهماتهم في النضال ضد الإيطاليين ؛ إنه العمى والجهل والانغلاق المطلق على إيديولوجية بأسة حقا^(٢٦) وقد جرى هذا التوجه العديد من المفكرين القومييين وأصحاب الطموحات الشخصية الوصلية، وهو أمر يندى له الجبين.

لقد أعتبر الباحثون المنصفون أن الأمازيغ كانوا أشد الناس عبر التاريخ حرصا على خدمة الإسلام وأداء واجباته، وأن السلوك الأمازيغي تجاه الإسلام هو سلوك متأصل فيهم ولكنهم ضد كل من مارس تجاههم التفرقة والإقصاء، وهذا موقف تبناه القوميون والعروبيون لكل ما هو غير عربي مع أسفنا العميق. ونحن الآن ندفع الثمن غالبا، تجاه هذا الإرث الذي يسعى المؤمنون بحتمية التواصل بين الهويتين والعمل على التقليل من تداعياته المباشرة على سلوكنا وتفكيرنا ومناهجنا المدرسية إلى تغييرها. إن الأمازيغية ليست ضد الإسلام أو العروبة بل أن القيادات الأمازيغية النيرة تنادي بإنجاز ثورة هادئة وممنهجة ضد سياسة الإقصاء والتهميش من قبل مجموعات محسوبة على الإسلام والعروبة والقوميين عموما^(٢٧) إن كيف يقبل الحزب الاشتراكي الدستوري التونسي والتجمع حزب بن علي بعد ذلك، عدم وجود ولا إشارة عابرة للأمازيغيين التونسيين في خطبهم والقوانين التي تبناها بل أنهم تجنبوا أي معلومة عن أمازيغ تونس كما أن حركة التجديد وحركة الديمقراطيين الاشتراكيين وحركة الوحدة الشعبية والحزب الديمقراطي التقدمي فقد تناسوا جميعهم هذا الملف، وهذا يعكس غياب الرؤية الثاقبة للتركيبية المجتمعية في بلادنا^(٢٨).

يتبين لنا إذن على ضوء هذا الاستعراض السريع لأهم توجهات السياسة المتبعة حول الملف البربري مدى المسؤولية التاريخية المباشرة بالدفع بالحركة الأمازيغية للتغني والغلو

المشط بالخصوصيات والإرث والتقاليد الأمازيغية الموروثة، وهذا ما دفع بباحث يعتبر من رجالات الدولة التونسية ووزير الثقافة سابقا ونعني به الأستاذ الحبيب بولعراس، غير المهتم مباشرة بالمسألة البربرية، أن يدعو سكان شمال إفريقيا إلى تجاوز العقدة البربرية... مقترحا أن تبدأ الكتب المدرسية على مستوى المغرب الكبير بعبارة "أجدادنا البربر" (٢٩)، وهو ما يترجم كيف أنه في لحظة زمنية محددة، كان التيار البربري قويا جدا وفاعلا حتى على الشخصيات المغاربية ذوي الثقافة المزدوجة وغير المنتمية إلى الأمازيغيين، إذ كانت تنادي بهذا المبدأ دون إيجاد المناخ الفكري التوافقي مع بقية العناصر المكونة وذات الأغلبية الفاعلة على المشهد في فضاءنا المغاربي.

والواقع أن الخطاب الأمازيغي ليس نقيضا للعروبة أو هو ند لها وكلاهما يكمل الآخر وعلينا أن نناهض كل المقولات والأطروحات التي تغذي صراعا خفيا ومفتعلا بين الهويتين الأمازيغية والعربية وتعمل على بث التفرقة والحدق بينهما. وهنا أعرج على بعض الأمثلة من عناوين المقالات المنشورة في الصحف المغاربية والعربية والتي تعكس التوجه السلبي والهجومى ضد مبدأ التوافق والتجانس عبر اتخاذ مواقف التحدي للرأي العام المغاربي في ثوابته وقناعاته. ولا يسعنا إلا التأكيد على أن مثل هذه الخروقات سوف تسيء حقا للجميع، كما نادى بذلك الناشط الأمازيغي الليبي مؤخرا فتحي بن خليفة ساعيا إلى تجييش المشاعر الأمازيغية ضد العرب بل أنه نادى بفصل الأمازيغ والذين يطلق عليهم بليبيا "الجبالية" عن صلب المجتمع الليبي ولا حرج لديه بإقامة علاقات مع إسرائيل، وهو ما يبرر كيف تم انتخابه رئيسا للكونغرس الأمازيغي العالمي بمباركة من أطراف مؤثرة على المشهد الثقافي المتوسطي (٣٠).

وللتأكيد على سلامة التوجه الوفاقي بين الهويتين، أتوقف عند هذا الإهداء الرائع للباحث التيجاني بولعالي في كتابه الإسلام والأمازيغية الذي أهدى كتابه إلى "أبي الأمازيغي الذي تعرب وإلى والدتي العربية التي تمزغت" (٣١).

ألا يعكس هذا الإهداء أحد أوجه التفاعل الحقيقي والتزاوج الثقافي والفكري البناء لكلا الهويتين طوال تاريخنا المشترك؟ وعليه فإن الأمازيغيين والعروبيين مطالبون بتجذير هاتاه الهوية المفتحة على الآخر والمعتدلة والمتفاعلة وإدراجها في سلوكنا وتفكيرنا ومناهجنا المدرسية ووسائل إعلامنا، خاصة وأن رصيدنا النضالي قد وحدنا حقا ويشهد لنا الجميع بذلك، إذ ماهية هويتنا ظلت ناصعة وفاعلة على أساس أن الأخلاق هي الإرث الحقيقي للجميع، وهو سر بقاء الإنسان المغاربي أمازيغيا كان أو عروبيا وفيما لتراثه النضالي وإسلامه النقي والتلقائي. وكما ذكر الباحث التيجاني بولعالي أن "الشعب الأمازيغي استطاع أن يصمد ويحفر في ذاكرة التاريخ بإبائه وماضيه وكرمه، وهو خلوق وكرم ونبيلى ويؤمن بالمبادئ التي يحاسب من أجل نيلها وإثباتها..." (٣٢).

ذلك أن المواطنة ليست مفهوما فضفاضاً بل هي محتوى مرتبط أصلاً بأرض ووطن ودولة وجنسية وقومية، وأن القومية الحقيقية هي هذا الانتماء للخصوصيات الحضارية المشتركة والتي تستمد شرعية وجودها من الدين واللغة والتقاليد، وكلها تم تفاعلها ضمن كينونة تسمى إما الهوية العربية أو الهوية الأمازيغية. ولا سبيل لتوحيد الهوية عبر فرقة هذه المكونات من أجل هوية واحدة وثابتة، بل الأجدى والأبقى أن تكون لدينا هوية مغاربية تنتظم فيها كل الخصوصيات المميزة لكل واحدة منها، وإن الهوية الوطنية يجب أن تشكل حجر الزاوية في تكوين الأفراد والشعوب والجماعات^(٣٣). على أن يكون فيها انسجام وتوافق وتكامل بينها، إذ الهدف من ذلك هو عدم ذوبان الهوية المغاربية بشقيها في هوية أوروبية أو أمريكية، أو الارتقاء في أحضانها أو الاستنجاها بها لدعم مساراتها ضد التوجه العربي للأغلبية العربية - إسلامية^(٣٤).

لقد استوجبت لوجود هوية ثقافية وحضارية اندماجية، عدم سيطرة اتنية معينة على الأخرى، ويومئذ يصبح باستطاعتنا أن ندافع عن كل الخصوصيات اللغوية والوجدانية لكل فريق ونضع بذلك حداً فاصلاً للتهميش الثقافي والخطاب القومي وطمس الهوية للطرف الأمازيغي والذي مورس على جزء فاعل وحيوي من مجتمعنا، على أن يكون اللقاء بين الهويتين حضارياً وليس عرقياً^(٣٥). مع التأكيد على أن الدراسات العلمية تثبت أن الإسلام قد أدى دور الحامي للهوية العربية والبربرية في نفس الوقت بالجزائر وتعزز ذلك الدور عبر مطالب جمعية العلماء الجزائريين قبل الاستقلال وبعده، كما أبرزت المعارضة الفكرية للنخبة الجزائرية قوة دفع وتفاعل حقيقي مع مطالب التعريب للحفاظ على سلامة الهوية الوطنية وهذا ما أكده الباحث د. المنصف وناس من أن معركة التعريب كانت جزءاً أساسياً من النضال الوطني للحفاظ على الهوية^(٣٦).

إن التنمية الحقيقية للأمازيغية تبدأ من تنمية الإنسان على أساس التبادل والاعتراف بالحقوق والواجبات بين الدولة والشعب^(٣٧)، وأضيف هنا أيضاً بينهم وبين القوميين المغاربيين، حيث نادينا برفض افتعال الصراع بين الفريقين، ولو حصل، فهو مؤشّر مرفوض خاصة وأن المجتمع المغاربي اليوم يطمح للوصول إلى مرحلة الوحدة الثقافية باحترام الأمازيغية والعربية^(٣٨) وخصوصاً عندما أقرت السلطة المغربية والجزائرية الاعتراف باللغة الأمازيغية كعنصر جوهري في الكينونة والهوية الوطنية ومنحت الأمازيغيين أحقية البث الإعلامي المباشر باللغة الأمازيغية وتعليمها للنشء، ونشر الكتب والصحف باللغة الأمازيغية، وهذا ما يعد اختراقاً ذكياً ضد جدار الصمت واللامبالاة التي تواصلت حتى وقت قريب جداً^(٣٩). كما أثبت في الدستور الجزائري الاعتراف الرسمي من أن الأمازيغية هي لغة وطنية وأن الجزائر وطن العرب والبرابرة وليس فقط عربي - إسلامي^(٤٠)!

لقد آن الوقت اليوم السعي إلى إثراء هويتنا الوطنية أمام هذا الزلزال الرهيب الذي تعرفه معظم الهويات في العالم، نتيجة تداعيات العولة الثقافية الرهيبية، حيث أصبح المنطق الاستعلائي الهجومي والممارس ضد مختلف هويات العالم وهويتنا بصفة مباشرة هي القاعدة. وقد ساهم ذلك في التناول على الثوابت الدينية والعقائدية والفكرية وتحقيرها عبر كل الوسائل السمعية البصرية والأقمار الصناعية والتي احتوت على الكثير من التضليل والتزييف، ونشر الرعب والخوف والحذر من الفئات والجماعات التي تقف صامدة للدفاع عن هويتها الثقافية وتراثها وذاكرتها اللاتنية، أمازيغية كانت أو مغاربية عربية - إسلامية، وهذه رسالة جديدة وجب أن تؤديها النخب المدركة بدورها في تعميق الوعي بهويتنا.

في الختام أدعو القيادات السياسية الجديدة في تونس وليبيا إنشاء لجنة خبراء متركبة من علماء اجتماعيين ومؤرخين واثروبولوجيين عرفوا بالنزاهة والعلم لدراسة ملف الأمازيغ وتقديم اقتراحات عملية لتعميق الوفاق الوطني الهوياتي الأمازيغي التونسي الليبي وبناء الثقة بيننا جميعا والاعتراف بالحقوق اللغوية والأدبية لكل الأمازيغيين والتكفير عن الأخطاء الجسيمة التي ارتكبت في حقهم منذ الاستقلال السياسي لبلداننا. كما أنني أناشد القيادات الأمازيغية بليبيا خاصة عدم الانزلاق وراء التوظيف الإيديولوجي المشط والإقدام على رفع الأعلام الأمازيغية بدل الأعلام الرسمية على المباني الحكومية، كما فعل أمازيغيو تونس بالجنوب وجبالية ليبيا عندما أنزلوا العلم الوطني ليتم تعويضه بعلم أمازيغي، والذي لو تواصل مثل هذا التحدي والهجوم على رموز شعاراتنا القومية، فسيلحق الضرر بقسم مهم من شعبنا ويقطع الطريق عليهم للمساهمة في بناء فضائنا الجغر - سياسي وإحلال الديمقراطية وإقرار التوافق الهوياتي الفكري الذي ينشده المخلصون من شعبنا

هوامش

- (١) كما نذكر هنا بهذه الجمعية التونسية التي أنشأت تحت عنوان : جمعية لم الشمل والتي ضمت ٨ جمعيات بربرية أخرى واحتفلت يوم ١٤ كانون الثاني/يناير ٢٠١٣ براس السنة الأمازيغية، وكان الهدف الجوهرى هو التعريف بلغتها وثقافتها المهملتين دوما في عهدي بورقيبة وبن علي، على أساس انتهاج سياسة الوفاق مع هوية الشعب. راجع : (الهوية المسترجعة) *"Une identité retrouvée" in, Réalités, N1412, Tunis, le 23/1/2013.*
- (٢) امحمد المالكى، "الأمازيغية في المغرب: رهان ثقافي أم ضرورة سياسية"، في رهانات الثقافة والمعرفة بتونس والمغرب العربي ١٩٥٦ - ٢٠٠٥، منشورات المؤسسة، تونس ٢٠٠٦، ص ١٢٩.
- (٣) فضل بعض الباحثين استعمال كلمة البربرية بدلا عن الأمازيغية، راجع بهذا الخصوص د. ناصر الدين سعيدوني، "المسألة البربرية في الجزائر، دراسة للحدود الاثنية للمسألة المغاربية"، في مجلة عالم الفكر، عدد ٤، الكويت، نيسان/ابريل ٢٠٠١، ص ١٤٢، وذكر الباحث بأن مصطلح الامازيغية كلمة موضوعة لغرض سياسي إيديولوجي قائم على مغالطة لفظية، تحاول التستر على الأصول الأولى لهذه المسألة. إلا أنني شخصيا لا أجاري هذا التحليل، فضلا استعمال الكلمتين لنفس الدلالات التاريخية مع تفضيلي استعمال الأمازيغية والتي أصبحت كلمة جيوسياسية عالمية الاستعمال وبصفة أخص من طرف الكتاب والباحثين والأدباء الأمازيغيين اليوم في فضائنا المغاربي. راجع أيضا: علي فهمي خشيم، سفر العرب الامازيغ، ٣ أجزاء، منشورات دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت ١٩٩٥، ج ١، ص ٦، حيث تعرض إلى هذه التسمية.
- (٤) محمد المختار العرياوي، من جذور المسألة القومية : البربر عرب قدامى تدمر، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، ١٩٩٣، ص ١٥.
- (٥) المصدر نفسه، ص ١٦، هاته القولة ذكرها المؤلف على لسان الكابتن الفرنسي *Mauric Galey* وهو من الضباط العسكريين بالجزائر.
- (٦) المصدر نفسه، ص ١٧، هاته القولة ذكرها د. بوديشون (*Bodichon*) سنة ١٨٤٥.
- (٧) عثمان سعدي، عروبة الجزائر عبر التاريخ، منشورات الحركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٢، ص ١٠، راجع أيضا د. ناصر الدين السعيدوني، نفس المصدر، ص ١٤٩، كلمة استقاها من كتاب دليل بجاية، القبائل الصغرى *Guide de Bougie : La Petite Kabylie*، منشورات باريس ١٩١٤، كما قدم د. ناصر الدين سعيدوني مثالا مثيرا للغاية حول شخصية المحامي أبازيزي الذي استبدل اسمه بأعسطين بعد اعتناقه المسيحية، وهو الذي يعتبر أن القبائلي ليس ساميا في أصله... وهو في ميوله اقرب إلى الشعوب اللاتينية!
- (٨) *G.H Bousquet, Les Berbères, p. 105, 2ème édition, Paris, 1961.*
- (٩) *Katherine E. Hoffman and Susan Gilson Miller, Berbers and Others : Beyond Tribe and Nation in the Maghrib, Indiana University Press, 2010, p. 3.*
- (١٠) المالكى، نفس المصدر، ص ١٢٩.
- (١١) التيجاني بولعوالي، الإسلام والأمازيغية : نحو فهم وسطي للقضية الأمازيغية، منشورات إفريقيا الشرق، الدار البيضاء ٢٠٠٨، ص ١٢٦.
- (١٢) سالم الأبيض، الأقلية البربرية في تونس، ص ٤٣ - ٤٤، منشورات المركز العربي للدراسات السياسية والاجتماعية، تونس ٢٠١١.
- (١٣) المصدر نفسه، ص ٤٤.
- (١٤) التيجاني بولعوالي، نفس المصدر، ص ١٢٦.
- (١٥) محمد ضيف الله : "الهوية البربرية من خلال المجلة الإفريقية"، في المجلة التاريخية المغاربية عدد

- ١٣٥، تونس، ٢٠٠٩، ص ١٠٨ - ١٠٩.
- (١٦) محمد ضيف الله، نفس المصدر، ص ١٠٩.
- (١٧) التيجاني بولعوالي، نفس المصدر، ص ١٢٦.
- (١٨) ٤٠ سنة من النضال الأمازيغي، منشورات الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي، القنيطرة، ٢٠٠٧، ص ٢٦، شكل هذا الكتاب إحدى المرجعيات التوثيقية الهامة لمعرفة كل أوجه نضالات الأمازيغيين بالمغرب الأقصى انطلاقاً من سنة ١٩٦٧ وعلى جميع الأصعدة السياسية والثقافية واللغوية.
- (١٩) المنصف وناس، الدولة والمسألة الثقافية في الجزائر، منشورات أليف، تونس، دون تاريخ، ص ١٦٧.
- (٢٠) *Katherine E. Hoffman, op. cit., p. 2* هذه هي الفقرة التي عكست هذا الموقف :
- "From the mid-sixties until the late 1990s, it was difficult to conduct original ethnographic research on Berber issues because of a hostile political climate in North Africa, where recognition of ethnic or linguistic "difference" was considered a challenge to the legitimacy of the state and the unity of the nation".**
- (٢١) سالم الأبيض، نفس المصدر، ص ١٢٢، حيث أثبت الأرقام التالية : ١٢ مليون بالمغرب و٦ ملايين بالجزائر وما بين ٢٠ و٥٠ ألفاً بتونس و٣٠٠ إلى ٥٠٠ ألف في ليبيا، وهناك ما بين ١٢ إلى ٢٠ ألفاً بمصر و٢ مليون يتوزعون بين مالي والنيجر وبوركينا فاسو. راجع أيضاً : *W. Marçais et A. Bar-* set: **"Les parlers arabes et Berbères", in Initiation à la Tunisie, Maisonneuve et Larose, Paris, 1950, p. 220.**
- أورد الباحثان أن مجموع البرابرة بحدود خمسين ألف. وأثناء الاستقلال، بقيت القرى البربرية بتونس تحافظ على الضمير البربري راجع أيضاً : *A. Louis, op. cit., p. 119.*
- (٢٢) ٤٠ سنة... نفس المصدر، راجع أيضاً : *Berbers and Others, op. cit., p. 3.*
- (٢٣) راجع الموقع التالي: *Haut commissariat de l'Amazighite (H.C.A)*
- وهذا المجلس الأعلى للأمازيغية أنشئ بقرار رئاسي بتاريخ ٢٧ أيار/مايو ١٩٩٥.
- (٢٤) كامب، ج، البربر الذاكرة والهوية، ترجمة جاد الله عزوز الطلحي، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، سلسلة الدراسات المترجمة (٤٤)، ص ٢٤، ليبيا، ٢٠٠٥.
- (٢٥) ولا سبيل إلى ذكر الأعلام الأمازيغيين الذين تركوا لنا العديد من المؤلفات المرجعية في التاريخ والآداب أمثال : البيان المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب لإبن عذارى المراكشي، وكتاب البكري وغيرهما من الأعلام الأمازيغيين الأفاضل. أما بالنسبة للفترة المعاصرة فهناك المئات من الشخصيات الفكرية الأمازيغية والتي شرفت المعرفة ونذكر هنا دور المفكر والفيلسوف محمد عابد الجابري أبرز القامات الفكرية على المستوى العربي.
- (٢٦) سالم لبيض، نفس المصدر، ص ٧٤.
- (٢٧) التيجاني بولعوالي، الاسلام والأمازيغية نحو فهم وسطي للقضية الأمازيغية، منشورات افريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٨، ص ١٣٠.
- (٢٨) سالم الأبيض، نفس المصدر، ص ٨٩، راجع مقالا نشر هذه الأيام بجريدة "الجزيرة" التونسية لشهر شباط/فبراير ٢٠١٣ وحوصل الكاتب فيه المعاناة الشديدة التي تعرض لها أمازيغيو تونس من النظامين السابقين، وقد حرر المقال باللغة الفرنسية السيد كمال تمارزيت:
- Kamel Tmarzizet, Les Amazighes : une ethnie dite berbère, d'art et de culture d'un passé lointain affirmé".**
- الأمازيغيون : اثنية بربرية، للفن والثقافة لماضي بعيد).
- (٢٩) *Habib Boulares: "Nos ancêtres les berbères", Jeune Afrique, n 1015, Juin 1980.*
- (٣٠) وإليك بعض العناوين الصادرة خلال السنتين الماضيتين :

- "الحزب الأصولي نشر وثائق عن صلب ناشطين أمازيغ دعماً أميركياً لمواجهة العرب: عشرات الجمعيات الأمازيغية تشن حرباً إعلامية على حزبي الاستقلال والعدالة والتنمية" والمقال نشر بجريدة "القدس" اللندنية بتاريخ ١٤ سبتمبر ٢٠١١.
- مهرجان كبير للموسيقى الأمازيغية في وسط العاصمة الليبية" في جريدة القدس بتاريخ ٢٩ أيلول/سبتمبر ٢٠١١.
- "أمازيغ ليبيا يطالبون بإدراج لغتهم ضمن الدستور الجديد للبلاد، في القدس العربي بتاريخ ٢٧/٩/٢٠١١.
- "أول مؤتمر أمازيغي في تونس" (CMA) جريدة المحرر التونسية بتاريخ ١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١١.
- "رئيس الكونغرس الأمازيغي العالمي : الأمازيغ الليبيون لا يجدون حرجاً في التعامل مع إسرائيل!" في القدس بتاريخ ٥/١٠/٢٠١١.
- "الكونغرس الأمازيغي سيطر على المعابر ويرفض أداء اليمين" في جريدة الشروق التونسية بتاريخ ٧/١٢/٢٠١١.
- (٣١) التيجاني بولعوالي، المصدر نفسه، ص ٦.
- (٣٢) المصدر نفسه، ص ٨٣.
- (٣٣) راجع دراستنا : "جدلية الهوية الثقافية العربية على محك العولة" في المجلة العربية للأرشيف والتوثيق والمعلومات، عدد ٢٣ - ٢٤، ص ٢٠ - ٢١، تونس ٢٠٠٨، يذكر في كلمة الرئيس الفرنسي ساركوزي من أن هوية فرنسا هي: روح وهو مبدأ روحاني *La France est une âme, un principe spirituel.*
- راجع أيضاً د. محمد عابد الجابري، مسألة الهوية العروبة والإسلام والغرب، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٥، ١٩٩٢. وقد ضم هذا الكتيب آراء أكبر المتخصصين العرب في مسألة الهوية.
- (٣٤) راجع جريدة القدس العربي بتاريخ ١٤ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١١.
- (٣٥) حوار أجراه معي منذ مدة بالدوحة السيد عبد الحكيم أحمين، بجريدة التجديد المغربية، راجع أيضاً سالم الأبيض، نفس المصدر، ص ١٤١، حيث نادي العقلاء بين الجانبين أن يكون الالتقاء بين الأمازيغية والعربية، فكراً وليس عرقياً.
- (٣٦) المنصف وناس، الدولة الوطنية.. نفس المصدر، ص ٤١ و ص ١٢١.
- (٣٧) التيجاني بولعوالي، نفس المصدر، ص ٦٦.
- (٣٨) سالم الأبيض، نفس المصدر، ص ٩٢.
- (٣٩) وفي هذا السياق نذكر أن الجزيرة الوثائقية قد أعدت فيلماً توثيقياً سنة ٢٠٠٩ بـ ٢٧ دقيقة بعنوان : "بربريات : قرى الصمت في تونس". ومنذ البداية يفاجئ المشاهد بهاته الشحنة الإيديولوجية المشطّة، بدءاً بالعنوان الذي عكس ظاهرة الخضوع والهيمنة لجزء من سكان عديد القرى التونسية والتي عاشت حالة من التهميش المجتمعي طوال عهدي بورقيبة وبن علي. راجع أيضاً سالم الأبيض، نفس المصدر، ص ١٢٣.
- Chérif Ouazzani, "L'Algérie : le paradoxe Berbère", in Dossier Jeune Afrique, (٤٠) N. 2549 du 21 Novembre 2009, p. 28.*